اليسار والحالة العربيّة

أحمد برقاوي ❖

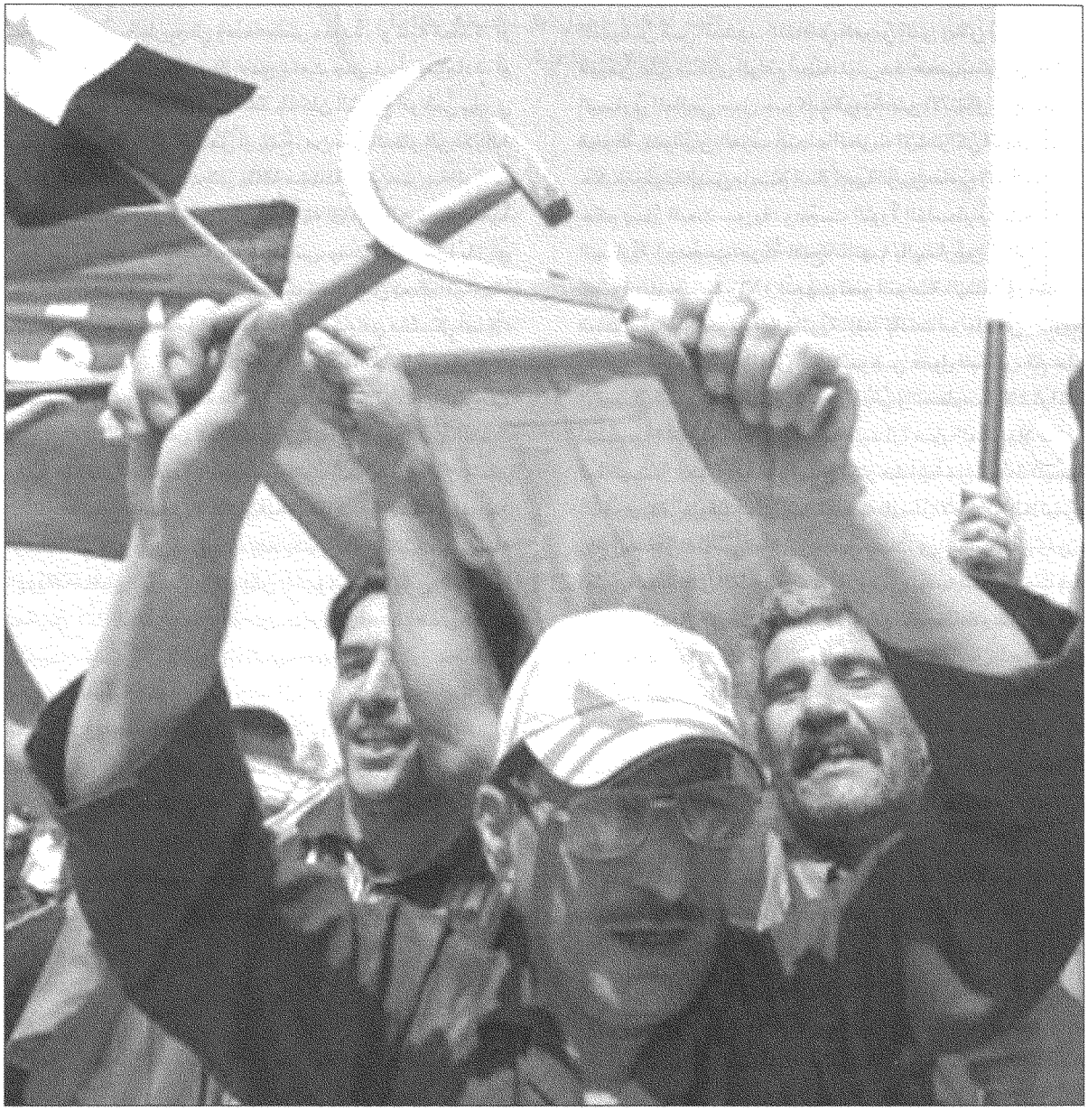

يتّخذ كلُّ وعيٍ بما يجب أن يكون عليه الواقعُ مكانًا له في السماء. بل قلْ: إنّ كلّ إيديولوجيا كلانيّةٍ ذاتِ وعدٍ بمملكة السعادة لا بدَّ من أن تحملَ طابعًا طوبويًّا ذا قدرةٍ سحريّةٍ أو إغرائيّةٍ على البشر.
ولقد عاشت العربُ منذ نهاية القرن التاسع عشر تجربةَ صياغةِ الوعد، وفي نوسانٍ متناوبٍ بين وعدٍ أرضيٍّ ووعدٍ إلهيّ، بين واقعٍ قائمٍ في المستقبل وآخرَ قائمٍ في الماضي.

❖ كاتب وأستاذ جامعيّ فلسطينيّ.

أجل، صاغت العربُ إيديولوجيا الوعدِ القوميِّ والوعدِ الإسلاميِّ في إهابٍ مزركشٍ بالهمِّ الاجتماعيِّ وفق أحدثِ نماذج التصوّرات الاشتراكيّة، فاسحةً المجالَ لوعدٍ استُعيرَ من ماركسيّةِ الغرب التي أصبحت أوتوبيا عالميّةً ذات طقوسٍ شبهِ واحدةٍ ولا يقلّ إغراؤها عن إغراء الوعدين الأولين.

لم يفكّرْ أحدٌ بالتاريخ في وصفه بنّى معنّدةً، أو شبهَ معنّدةٍ، أو قابلة للتجاوز، بل حضر في صورة بعثٍ جديد، أو استعادةٍ، أو صورة تاريخٍ الآخر. في هذه الأثناء كان التاريخُ الواقعيُّ يجري مجرى النهر القديم، ويتدفّقُ أو يشحُّ، من دون النظر إلى الإرادةِ وإمكاناتها، التي تحوّلتْ إلى طاقةٍ مشتعلةٍ ولكنْ سريعة البرود. بل إنّ رمادَ هذه الإرادة سرعان ما ذرته الريحُ، ولم تجدِ النخبةُ الحاكمة نفسَها إلا متصالحةً مع البنى، ومحافظةً عليها بلا أيِّ اكتراثٍ بالحركة التاريخيّة التي كانت تجري من تحت أقدامها. لقد استمدّ الداعيةُ الإسلاميُّ قوّته من وعيٍ متشكّلٍ أصلاً، ومن ثقافةٍ متوارثةٍ تضعضعُها الحاجاتُ والتأثيراتُ وإغواءاتُ الغرب. واستمدَّ الداعيةُ القوميُّ حضورَه من حلمٍ يراود وعيًا مثقلاً بالحنين إلى دمشقَ عاصمةِ الدنيا، وإلى بغدادَ أمِّ الدنيا، وإلى القاهرةِ عاصمةِ المعزّ. واستمدَّ الماركسيّ قدرته على التأثير من حلمٍ إنسانيٍّ لا مكان فيه للتفاوت بين الناس. لم يكن الإسلاميُّ على وعيٍ بنكوصه، ولم يكن القوميُّ على وعيٍ بعناد الهويّات ماقبل القوميّة، ولم يكن الشيوعيُّ على وعيٍ باستحالة تحقيق جنّة السماء على الأرض. لم يكن أحدٌ ليحسَّ بغياب التاريخ، فيما كان التاريخُ يمشي مستهزئًا بالذين يتجاهلون إرادتَه الخفيّةَ وعقلَه العنيد.

هكذا نشأ واحدٌ من أطرفِ أنواع التناقضِ غير المثمرة: إنّه تناقض بين إرادةٍ جمعيّةٍ (حزب، حركة)، وإرادةِ تاريخٍ عفويّة؛ بين إرادةٍ واثقةٍ مفعمةٍ بالآمال المعزّزة إيديولوجيًّا، وإرادةٍ تعمل بالخفاءِ من دون وعيٍ؛ بين إرادةٍ ليست واعيةً بحركة التاريخ، وتاريخٍ يواجه وعيًا من خارجه ومن وحيه معًا. فكان الماضي حاضرًا، والحاضرُ غائبًا. كان المستقبلُ فكرة منبتّةً تبحث عن تربةٍ لم تتكوّنْ بعد.

❖❖❖

لم يكن اليسارُ العربيّ، المعبّر في العادة عن حسٍّ أخلاقيٍّ عالٍ بالعدالة والكرامة الإنسانيّة، بمنجًى من الوقوع في حبائل النزعة الإراديّة المفعمة بالآمال. فلقد استمدَّ قوّتَه من منظومة الدول الشيوعيّة التي كانت ذات شأنٍ في حركة التاريخ العالميّ، ومن الدعم المادّيّ والمعنويّ الذي تلقّاه منها. كان الاتحاد السوفييتيّ يقوم بدورِ المواجهة مع الإمبرياليّة العالميّة. وفي أوروبا الغربيّة كان الشيوعيّون قوّةً فاعلةً جدًّا في النقابات والبرلمانات والحياة الفكريّة. الشعبُ الفيتناميّ كان يخوض كفاحًا بطوليًّا ضدَّ أمريكا، وغيفارا يخوض حربَ العصابات في أمريكا اللاتينيّة. بعض دول إفريقيا، كالحبشة وأنغولا، أعلنت النظامَ الاشتراكيّ. والعسكر في أفغانستان قام بانقلابٍ شيوعيّ.

البلدانُ العربيّة، بدورها، شهدت ازدهارًا لليسار في أوساط الطبقة الوسطى، ولاسيّما فئات المثقّفين، الذين أدّى حضورُهم المهيمنُ في المشهد الثقافيّ العربيّ إلى الظنّ بأنّ اليسار مهيمنٌ على مستوى الواقع أيضًا. ليس هذا فحسب، بل إنّ المناخ اليساريّ العالميّ حمل حركاتٍ قوميّةً على الانتقال إلى اليسار: فحركةُ القوميّين العرب أنتجت الحزبَ الاشتراكيّ اليمنيّ الذي حكم جنوبَ اليمن باسم الماركسيّة؛ وبين عامَيْ ١٩٦٦ و١٩٧٠ حكم يسارُ البعث سورية؛ وعجّت الثورةُ الفلسطينيّة بالحركات اليساريّة (وعجّت حركةُ «فتح» ذاتها باليساريّين)؛ الناصريّةُ نفسُها بعد حرب ١٩٦٧ اتّجهت نحو النزعة اليساريّة؛ وكذلك فعلتْ جبهةُ التحرير الجزائريّة. لقد كانت مرحلةً من التاريخ يساريّةً، مفعمةً بالآمال التي تنمو في عقول البشر. ثم جاء الانهيارُ الكبير في الاتحاد السوفييتيّ والمنظومةِ الاشتراكيّة لتضع حدًّا لتاريخ الأمل. وبهزيمة اليسار، صار العالمُ بلا قلب.

أما اليسارُ العربيُّ تحديدًا فبدا أكثرَ هشاشةً من أنماط اليسار الأخرى. ففي الوقت الذي استيقظ فيه اليسارُ الأمريكيُّ اللاتينيّ، راح اليسارُ العربيُّ يخفي وجهه خجلاً، وراحت بعضُ رموزه تعلن التوبةَ على الطريقة الدينيّة. وفي الوقت الذي قدّمتْ فيه الأنظمةُ الديكتاتوريّة أنموذجًا فذًّا على الانحطاط وعلى قدرتها على تحطيم قيم الوجود الإيجابيّة، كان المسلمون يلجؤون إلى الله مرّةً أخرى يرجون الخلاصَ الأرضيّ، أو ينسجون أحلامَهم من وحي الثورةِ التكنو- إلكترونيّة، وينمّون حاجاتهم الإنسانيّةَ والمطلبيّة في عالمٍ من النهب والفسادِ والقمع.

كان التيّار الإسلاميّ السياسيُّ هو الوجه المعبّر عن انحطاط السلطة والعالم القديم المشابهِ لعالمها، معزّزًا بتضحياتٍ ووعيٍ ثقافيٍّ إسلاميٍّ مجتمعيّ، ومطوّرًا أطاريحه القديمة بمفهومي «الدولة المدنيّة» و«الديمقراطيّة.» وكانت حركاتُ الشباب العفويّةُ هي الوجه المعبّر عن جدّة الحياة؛ هم وحدهم من سمع نواقيسَ التاريخ تعلنُ أوانَ التجاوز. وفي حين كان التيّارُ الإسلاميُّ يترصّد اللحظة التي ينقضُّ فيها على السلطة، عكست انفجاراتُ الشباب شيخوخةَ البنى القديمة، وحملت انتفاضاتُهم وعدًا بعالمٍ نقيض. لكنّ اليسار لم يمتلك حضورًا لافتًا على مستوى الجمهور العريض الثائر. لم يولد جيلٌ يساريٌّ جديدٌ ذو حاسّةِ شمٍّ تاريخيّ، علمًا أنّ هذه المرحلة من التاريخ المعاصر هي أفضلُ المراحل من حيث شروط إعادة إنتاجِ اليسار.

لقد اعتقد نفرٌ من نقّاد اليسار أنّ أساس المشكلة كامنٌ في الخطاب اليساريّ، وأنّ الأزمة أزمةُ أفكار. هذا الوعيُ الساذجُ بالتاريخ أوقف الناظرين إلى اليسار عند مفهوم «الأزمة،» وهو مفهوم ذو وظيفةٍ تطهريّةٍ ويعبّر عن عقلٍ كسلان. فإذا كانت

الأزمةُ مجرّدَ أفكارٍ خاطئةٍ عن الواقع، فيكفي أن يأتي شخصٌ نبيهٌ ويقدّمَ لنا أفكارًا مطابقةً للواقع حتى يتجاوزَ اليسارُ أزمتَه مع الاحتفاظ بقاعدةِ اليسار الفكريّة (الماركسيّة). لكنْ إذا كانت معرفة الواقع ذاتُ شأنٍ مهمٍّ في التعامل المثمرِ معه، فإنّ الأوهام في كثيرٍ من الأحيان قادرةٌ على تحريك البشر ومدّهم بطاقةٍ على الفعل الذي يتطابق مع منطقِ التاريخ أكثر بكثير من أيّ فكرةٍ نظريّةٍ صحيحة.

على اليسار أنْ يطرحَ مفهومَ الدولة العلمانيّة الديمقراطيّة الاشتراكيّة، وأن يعيد التفكير في مفهوم الاشتراكيّةِ لا بوصفه رأسماليّةَ الدولة كما حصل، بل بوصفه نظامًا للعدالة الاجتماعيّة.

ففزوةُ الصناديق التي قام بها الإسلاميّون في مصر (الإخوان والسلفيّون) كان سلاحُها منظومةً من الأوهام المطابقةِ مع ثقافةٍ معنّدة، وزاد النظامُ الديكتاتوريُّ الفاسدُ من عنادها. لقد صبّت القريةُ المصريّةُ أصواتها في «الإسلام هو الحلّ» و«الدولة المدنيّة،» فيما لم يحظَ التيّارُ الناصريُّ والاشتراكيُّ ـ الماركسيّ والعلمانيّ بأكثر من ٣٠ ٪ من أعضاء مجلس الشعب. وفي حين صوّت قليلون لمفهوم «الدولة العلمانيّة» الواضح، الذي يعني فصلَ الدين عن الدولة والمساواةَ بين جميع المواطنين بمعزلٍ عن الانتماءِ الدينيّ والعرقيّ، صوّتت الأكثريّةُ لمصطلحٍ خالٍ من القيمة المعرفيّة، وظيفتُه الخداع لا غير، أقصدُ مصطلحَ «الدولة المدنيّة.» إنّ أولَ تحديدٍ لهذه الأخيرة هو أنّها ليست دولةً علمانيّةً، وإلّا لما رُفِضَ من التيّار الدينيّ. وإذا لم تكن الدولةُ المدنيّة علمانيّةً فما هي إذًا؟ إنّها الدولةُ التي حاول الإخوانُ المسلمون أن يجعلوها متلائمةً مع الأشكال الخارجيّةِ لإنتاج السلطة، كالانتخاب وإشراك الجميع في إدارة الدولة، مع إبقاء الإسلام دينَ الدولة، وإبقاء القرآن المصدرَ الأساسيَّ للتشريع!

❖❖❖

إنّ هذه المرحلة من تطوّر الحراك الثوريّ العربيّ مرحلةٌ انتقاليّةٌ نحو نظامٍ ديمقراطيٍّ، وهي مرحلةٌ قد تطول. فتاريخُ الركود والخرابِ والتسلّطِ الذي امتدَّ أربعةَ عقودٍ أو أكثر لا يمكنُ تجاوزه بخريطة طريقٍ تضع خطّةً قصيرةَ الأمد. كما أنّ صراعَ القوى على الأرض سيبقى حاضرًا، ولكنّ هذه المرّة بين القوى الإسلاميّة والقوى الديمقراطيّةِ العلمانيّة واليساريّة. والذي يهمّنا في هذا المقام هو اليسارُ ودوره في المستقبل.

إنّنا لا نجانب الصوابَ حين نقول إنّ شروطَ إعادة إنتاج اليسار متوافرةٌ، وإنّ ضرورةَ اليسار الآن ناتجةٌ من حاجةٍ موضوعيّةٍ بسبب الفجور المطلقِ للرأسماليّة المتعولمة. إنّ أمام اليسار العربيِّ الجديد مهمّتين: مهمة البرنامج السياسيِّ الوطنيّ والقوميّ، والبرنامج الاجتماعيّ الاقتصاديّ.

لكن ليست ثمة علاقةٌ ضروريّةٌ بين اليسار والماركسيّة. لا علاقة بين أن يكونَ الكائنُ البشريُّ يساريًّا وأن يكون ماركسيًّا لأنّ خطاب العدالة الاجتماعيّة لا يحتاج إلى ماديّةٍ جدليّةٍ أو ماديّةٍ تاريخيّة. وهنا يجب أن نميّزَ بين حاجة الفيلسوفِ أو المفكّر أو المؤرّخ إلى النظريّات، وحاجةِ الجمهور الذي تسيّره الحاجات الحياتيّة. فالفئاتُ التي تعاني همجيّةَ الرأسماليّة تحتاج إلى خطابٍ مرتبطٍ بالتحرّر من عجز الرأسماليّة عن تلبيةِ الحاجات، وتحتاج إلى نظامٍ يجعل من همومِ الأكثريّةِ همومَه. هنا لا بدَّ من نقل فكرةِ «العدالة» من حقلها الأخلاقيِّ حيث يضعها التيّارُ الإسلاميّ، إلى موقعها ضمن نظامٍ يقوم على تلبية الحاجاتِ وإلغاءِ الاضطهاد. هذه الفئاتُ لا تبحث عن أيّهما أوّل، المادة أم الوعي، بل أيّهما أول، الحياة الكريمة أم الحياة المذلّة؟ وعندي أن اليسارَ يجب أنْ يطرحَ مفهومَ الدولة العلمانيّةِ الديمقراطيّة الاشتراكيّة، وأن يعيد التفكير في مفهوم الاشتراكيّةِ لا بوصفه رأسماليّةَ الدولة كما حصل، بل بوصفه نظامًا للعدالة الاجتماعيّةِ ويعمل على تحقيقِ الحاجات التي تتوالدُ على نحوٍ دائمٍ وتتجدّد.

دمشق